ليبيا: أرض الأساطير والشياطين

في مطلع عام 2008 زار الصحفي والكاتب ديفيد وينتر ليبيا لإعداد مقالة للمجلة التاريخية الشهيرة « هيستوري توداي »، تنقل في تلك الرحلة بين لبدة وفزان ومناطق كثيرة في ليبيا متتبعا آثار الأماكن الأسطورية التي ارتبطت بقصص الميثولوجيا حول العالم، وقد نشرت مقالته المطولة في يونيو من ذلك العام، وهذا جزء من تلك المقالة التي كتبت بعنوان:

ديفيد وينتر يزور أرضاً تملؤها لآلاف السنين خيالات الأغراب

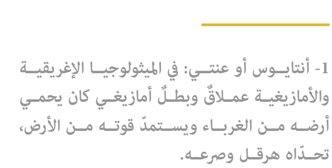
منذ القدم وحتى اليوم، قليلة هي البلدان التي تمّت أسطرتها بعمق مثل ليبيا. وفقاً لقدماء الإغريق، فإنّه على التراب الليبي قُطّع أنتايوس[1] إرباً من قبل هرقل، وقرب بلدة سيلين الليبية يُعتقد أن القديس جورج من إنجلترا بذاته قد قتل التنين وأمّن الفتاة العذراء. المؤرخ هيرودوت من القرن السادس قبل الميلاد (ق.م) ادّعى أن «مخلوقات ذات وجوه كلاب ومخوقات دون رأس، أعينها في صدورها» تبخترت على الأرض التي نعرفها بليبيا.

هذا القَصص، القديم والحديث، يحجب حقيقة تحمل ذات القدر من البذخ، زائر الأطراف الجنوبية يمكنه أن يخالط حيوانات غريبة، أو على بعد عالم من هناك على حافة المتوسط يمكن له تتبّع خطى الليبي الذي تولّى قيادة أحدى أكبر القوى العظمى للعالم القديم، عندما تولى لوشيوس سيبتيموس سيفروس (211–145م) زمام الإمبراطورية الرومانية من ديديوس جوليانوس في 193م، أصبح أول إمبراطور إفريقيّ لروما، وآخر حكام ليبيا المولودين في وطنه حتى استولى القذافي على السلطة في 1969.

تعجّ لبدة الكبرى بذكرى سيبتيموس لبدة، أو بالأحرى لبدة الكبرى Leptis Magna، تقع على بعد 130 كيلومتراً من العاصمة الليبية الحديثة طرابلس.

ابتدأت المستوطنة على الأرجح في القرن السادس قبل الميلاد كموقع تجاري فينيقي، واستُمِدّ ازدهارها من زراعة الزيتون، انطلق التوسع الروماني في أفريقيا بعد هزيمة قرطاج في 146 قبل الميلاد واكتسب زخماً بعد انتصار قيصر على بومبيي بعد مائة سنة لاحقاً. لقد بقيت لبدة نفسها مدينة حرّة قبل البروز كمستعمرة رومانية Colonia تحت تراجان في 110 قبل الميلاد، وقد تمتعت لبدة بالفعل بمعالم مدينة مزدهرة، مسرح مبني في ظلّ حكم أغسطس، مدرج نيرونيّ [نسبة لنيرون] كبير، سيركٌ يعود لوقت ماركوس أوريليوس، ومجمّع حمّامات غنيّ بالزينة، والذي يعدّ في حد ذاته أحد أهم الأشياء في أي زيارة لشمال أفريقيا الرومانية، أُمر بإنشائه من قبل هادريان. ومع بزوغ نجم سيبتيموس، فقد بدأت النخبة الأفريقية الغنية في تزين لبدة بتماثيل سيفيروس – «حامي العالم» – وعائلته. وفي وقت قصير، صار أهالي المدينة يطلقون على أنفسهم لقب «سيبتيميانيّ» على شرف ابنهم.

لكن التدخل الإمبريالي المباشر هو ما دفع لبدة للعظمة عندما باشر سيبتيموس أحد أعظم مشاريع البناء في العصر القديم. بحلول الوقت الذي أنهى فيه كركلّا – ابنه وخليفته – المخطّط الطموح، تم تغيير هيئة الميناء الفينيقيّ السابق. قلب المدينة خُلّد بمبانٍ عامّة هائلة: منتدى جديد وبازيليكا[2] مع نيمفايوم[3] Nymphaeum وشارع مزدان بالأعمدة يقود إلى ميناء معادٍ تصميمه بكامل المنارات Pharos. رغم أن لبدّة، مثل سيبتيموس، لم تكن لتفقد كلياً لهجتها القرطاجية، فإنّها قد اتخذت الآن مظهراً لمدينة إمبريالية رومانية مخططة استراتيجياً، ومتمدّنة كثيراً في أوجها، احتضنت حوالي 80 ألف نسمة. أحد أعظم مباهجها اليوم هو هدوؤها.



1- أنتايوس أو عنتي: في الميثولوجيا الإغريقية والأمازيغية عملاقٌ وبطلٌ أمازيغي كان يحمي أرضه من الغرباء ويستمدّ قوته من الأرض، تحدّاه هرقل وصرعه.

2- بازيليكا: في القديم مبنى روماني بمحاذاة المنتدى بالمدن الرومانية، بعدها استمرّ استخدام الاسم لوصف المباني المسيحية المحتوية على صحن وأروقة.

3- نيمفايوم: في اليونان القديمة وروما، كان هذا نصباً مبنياً للحوريّات nymphs، وخصوصاً حوريّات الربيع.



يمكـن بسـهولة التجـوال عـلى طـول الشـارع المعمّـد Via Colonnata، والـذي صُـفّ يومـاً مـا بـرواق معمّـد مـزدوج مـن 125 عمـوداً، في خلـوة رائعـة. ومتعـة أعظـم منهـا هـو أن تقـضي سـاعة وحـدك تمامـاً، تتأمـل الأطـلال العظيمـة للمنتـدى السـيفيراني [نسـبة لسـيفيروس]. بمقـاس 60 * 100 مـتر، الأرضيـة الشاسـعة مفروشـة بقطـع مـن حجـارة سـاقطة وطـوب مـن الهيـكل العلـويّ، تتنـاثر حـول قـدم المـرء رؤوس أعمـدة رخاميـة مـن اليونـان وأعمـدة جرانيـت أحمـر مـن مـصر، بقايـا رواق مـن الحجـر الجـيري ومكعبـات مـن رخـام الرصيـف الأبيـض Pavimentum تتنافـس لإثـارة الاهتـمام تحـت النظـرة الفولاذيـة لميدوسـا [4] عملاقة تملؤها الثعابين.

بعيـداً جنوبـيّ لبـدة الكبـرى تقـع فـزّان، السـاحة السـابقة للجرمانييـن والمنبـع الأسـطوري لوحـوش هيـرودوت عديمـة الـرؤوس.

حتـى اليـوم إن الرحلـة مـن سـاحل المتوسّـط الليبـي إلـى سـعة الصحـراء هـي تجربـة مهيبـة آخذة للألباب.

المنتـدى محـاطٌ بأروقـة معمّـدة مـن ثـلاث جهـات وبقايـا معبـد شـاهق مـن الجهـة الأخـرى. يقـود ممـر في الزاويـة الشـمالية الشرقيـة، عـبر سلسـلة مـن المحـلّات Tabernae إلى البازيليكا: بطـول أكـثر مـن 90م وعـرض 30م. لقـد سـحرت الـصحـون الطويلـة للبازيليكا، وممراتهـا العريضـة وصفوفهـا المكونـة مـن طابقـين حتّـى أكثر الزوّار مشاهدةً.

ميدوسـا: في الميثولوجيـا الإغريقيـة وحـشٌ يوصـف بـأن لـه وجهـاً كريهـاً لامـرأة لهـا ثعابـين سـامّة مـكان شـعرها. تقـول الأسـطورة إن النظـر إليها مباشرة يحيـل الناظـر إلى صخـر.

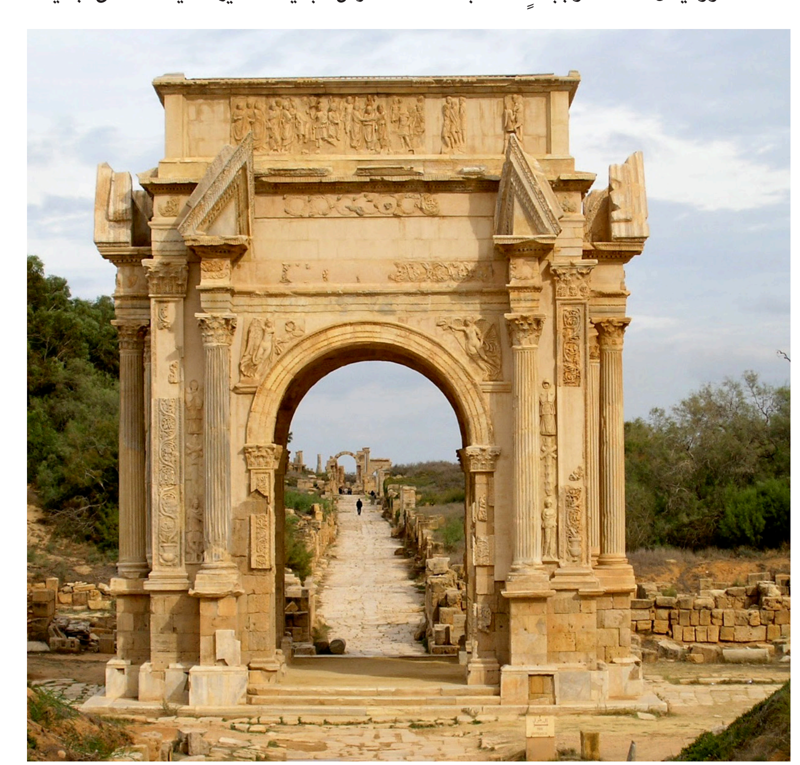


مع ذلك، لم يشهد سيبتيموس نفسه فخامتها المكتملة. لم يكتمل المجمّع حتى 216م، بعد خمس سنوات من وفاته. لقد كان سيبتيموس بالفعل غائباً عن أفريقيا لما يقارب كامل عهده، إما حاكماً من روما أو يشنّ حملة في مكان آخر في الأرض التي يملكها والممتدة من جدار هادريان إلى الحصون الدفاعية الطرابلسية Limes Tripolitanus.

سيبتيموس زيارته الوحيدة لمدينته الأم كإمبراطور كانت في سنة 203، عندما كان يحيّي بذات المبنى الضّخم الذي يحيّي الزوّار اليوم: قوس نصر رباعيّ من الرخام والحجر الجيرية في مفترق طرق الشارعين الرئيسيين، أعمدة القوس الكورينثيّة وأركانه، أفاريزه المعقّدة وألواحه المنقوشة، كلها تشهد بهيبة «رجل لم يستطع العالم إعاقته».

ومع ذلك فإن من كانوا يوماً روماناً زحفوا عبر نفس الأرض، من الممكن أن فسيفساء موجودة بالقرب من لبدة تسجل الفصل الدمويّ الأخير لمثل هذه البعثة. في سنة 69م، يروي المؤرخ تاكيتوس، أن الجرمانتيين هاجموا لبدة وحجزوا مواطنيها خلف أسوار المدينة، فاليريوس فيستوس، مندوب نوميديا، جاء للإنقاذ وطرد الجرمانتيين إلى عاصمتهم الواحة جرمة، على مسافة ثلاثين يوماً، قد تعرض فسيفساء وجدت قرب زليطن، حوالي 30 كيلومتراً من لبدة، انتصار فاليريوس اللاحق. هذه الفسيفساء، والتي الآن في متحف طرابلس، تصوّر في جزء منها عقاباً بالإلقاء للوحوش Damnatio Ad Bestias دموياً مقاماً في المدرّج العظيم في لبدة.

يعرض أحد المشاهد فهداً يثِبُ على جرمانتي شبه عارٍ مقيّد في عجز إلى عربة صغيرة، والدم ينهمر من وجهه. وإذا ما سافرنا جنوباً من العاصمة الجرمانتية القديمة يصل المرء إلى أكاكوس، أرضٌ صحراوية ذات كثبان شهيقة وتشكّلات صخرية هائلة، وأقواس خشنة، ووديان حادّة، وجبالٍ منتصبة، هذه الأرض البعيدة غير مضيافة لكن جميلة



بشكلٍ جيّاش، تبدو أنها تؤكد أن ليبيا أرض تفوق الأساطير. هنا يهيم الطوارق، أسلاف الجرمنتيين الرحّل متوشّحوا الأزرق، وهنا توجد بعض أكثر الدلائل إثارة للدهشة على العبقرية الإنسانية: مئات النقوش الحجرية والرسومات التي تعود إلى ما لا يقلّ عن سبعة آلاف سنة.

تماسيح وفيلة، زرافات وجواميس تحدّق من وجوه صخريّة بعيدة في مكان قاحل وخالٍ حيث يصعب التصديق بوجود حياة مستمرّة. هناك أيضاً العديد من الصور البديعة الرائعة لصيادين بأقواس وسهام، وعربات مزيّنة وأحصنة ومشاهد رعويّة متباينة لأبقار تُحلب ونساءٍ يغسلن شعورهنّ.

إذا ما فسّر هيرودوت وجودها باقتراح أنه، يوماً ما، في وسط هذه الأرض البور كانت هناك بحيرة هائلة عذبة، لاستبعدنا تأمّلاته على أنه مجرد أسطورة أخرى من وحي خياله. لكن الدليل موجود: إن آثار مسطّح مائيّ ضخم - المسمّى»بحيرة ميجافزّان» من قبل العلماء – قد اكتشفت في وسط الصحراء، بعمر 420 ألف سنة، وبحجم إنجلترا.

إنّ الذكريات الباقية من رحلتي الأخيرة إلى فزّان لا تمتّ بصلة للتقنيات المعقّدة المستخدمة لاستكشاف ميجافزّان ومثيلاتها من البحيرات من عصر البليستوسين. إنما هي من مصادفة مجموعة من الطوارق قرب الحدود مع الجزائر والنيجر. هنا، وسط الكثبان والواحات، لم يكن مفاجئاً مصادفة فضال الضيافة والتراث الليبيين، وأن أدعى لمشاركة الشاي بالنعناع. ولم يكن مفاجئاً اكتشاف أن هذه المجموعة من الطوارق كانت نوعاً من الأخويّة الموسيقية. أن تسمعهم يغنّون – وينطقون بشكلٍ مثاليّ – كل كلمة من المقطع «ستعود إلى الجبل حيناً تأتي...». لقد فاق هذا كلّ أسطورة هيرودوتيّة.

ديفيد وينتر
ترجمة: أنس بو ميس